الوطنية في شعر إبراهيم طوقان

م.د. سليم ضيول قاسم

كلية الإمام الكاظم عليه السلام/ أقسام ذي قار

lecdhi72@alkadhum-col.edu.iq

الملخص:

الوطنية بكل ما تعنيه هذه المفردة من معانٍ ، لها الدور الكبير في اثراء المكتبات الادبية ، ناشرة أبهى الصور التي أبدعتها مخيلة الشعراء والكتاب – العرب– معلنة حالة اليقظة والاستنفار الدائمين في المجتمعات التي مابرحت تستعر بنار الحروب ، وكلما خفت أوارها عادت واشتعلت ملهمة أبناءها الشعراء أن يؤطروا هذه الميادين بأبهى ما جادت بها قريحة كل واحد منهم.

الوطن: ان كنت فقيرا فيه فهو غناك ، وان كنت جائعا فهو رغيفك ،وان كنت مجهدا فهو دليل راحتك .

حتى في جنة الخلد ، تنازعك روحك اليه ، ويشدك الهيام به حتى لاتكاد تجد ملاذا منه الا اليه .

هذا الوطن الذي يعلم أبناءه أن المحبة فطرة ، تنساب من قلب الى قلب وكأنها رافدٌ، من دون وعي تتجلى هذه الفطرة ، انما لغريزة ، فيهيم المحب شاهدا !

كل هذه المعاني كانت شاخصة في أبيات طوقان، خلدت على مر الايام تناقلتها القلوب قيل الألسن ، فكان بحق شاعر الوطن السليب ، فلم يمر بشيء فيه أنة من أنات وطنه الا دونها شعرا يتلى للأجيال، ولم يترك طائفة من شعبه الا مثلها ، معبرا عمّا كانت تحسُّ به ، فهو ابن أمته .

الكلمات المفتاحية:(الوطن ، الشهيد ، ابراهيم طوقان ، فلسطين).

Patriotism in the poetry of Ibrahim Touqan

Dr. Salim Dhiul Qasim

Imam Al-Kadhim College, peace be upon him, Dhi Qar departments

Abstracts:

Patriotism, with all the meanings of this term, has a major role in enriching literary libraries, spreading the most splendid images created by the imagination of poets and writers - Arabs - announcing a state of constant alertness and alertness in societies that are still raging with the fire of wars, and whenever their lights subside, they return and

flare up, inspiring their poets. To frame these fields with the brilliance of what each one of them was capable of.

Homeland: If you are poor in it, then it is your wealth, and if you are hungry, then it is your loaf, and if you are tired, then it is the evidence of your comfort.

Even in the paradise of eternity, your soul yearns for Him, and your infatuation with Him seizes you so that you can hardly find a refuge from Him except for Him.

This country teaches its children that love is instinct, it flows from heart to heart as if it is a tributary, without awareness this instinct is manifested, but it is an instinct, and the lover wanders as a witness!

All these meanings were evident in Touqan's verses, immortalized over the days, passed on by hearts and tongues, so he was truly the poet of the stolen homeland, and he did not pass anything in him that he was one of the moans of his homeland except without it as poetry recited for generations, and he did not leave a sect of his people except like it, expressing what it felt. By him, he is the son of his nation.

Keywords: (homeland, martyr, Ibrahim Tuqan, Palestine).

الوطن لغةً و اصطلاحا

الوطن لغة " المنزل تقيم فيه ، وهو موطن الانسان ، و محله يقال : أوطن فلان أرضا كذا ، و كذا أى أتخذها محلاً و مسكناً يقيم فيه" (ابن منظور،١٩٩٠م ، ١٣ : ٤٥١) .

و قال الزبيدى : "الوطن منزل الإقامة من الانسان ، و محله و جمعها اوطان".(الزبيدي ، ١٩٦٦ ، ٩: ٣٦٢) و"وطن: الواو والطاء والنون : كلمة صحيحة ، فالوطن : محل الانسان واوطان الغنم مرابضها ، وأوطنت الارض : أتخذتها وطناً" (مقاييس اللغة ،١٩٩١ ، ٦ :١٢.)

و"الوطن: مكان اقامة الانسان ومقره واليه انتماؤه ، ولد به أم لم يولد وجمعها أوطان"(المعجم الوسيط، ١٤٠٨هـ،ج٢ :١٠٤٢)

أما في الاصطلاح : عرف الجرجانى الوطن بقوله : " الوطن الاصلى هو مولد الرجل ، و البلد الذى هو فيه". (الجرجاني ، ١٩٨٥ ،١ :٣٢٧)

كذلك تعرفه آمنه حجازى " بأنه بشكل عام قطعة الارض التى تعمرها الأمة و بشكل خاص هو المسكن فالروح وطن لأنها مسكن الإدراكات ، و البدن وطن لكونه مسكن الروح ، و الثياب وطن لكونها مسكن البدن ، فالمنزل و المدينة و الدولة والعالم كلها اوطان لكونها مساكن ". (حجازى، ٢...م: ٨.)

والعباس بن الأحنف يرى فيه المأوى والملاذ ، والمكان الذي تبثه الاشجان :

ياغريب الدار عن وطنه مفردا يبكي على شجنه

كلما جد البكاء به دبّت الأسقام في بدنه

(بن الاحنف،١٩٦٥ :٣١١)

المقدمة:

الوطن كلمة قد لا يعرف الكثير منا مغزاها و قد يعرف البعض أنها تدل على قطعة ارض او مكان ميلاد وهذا لا يتعدى ان يكون سوى مفهوم لغوى فقط . ولكن اذا نظرنا إلى الوطن من الناحية النفسية و العلاقة القائمة بين الوطن و المواطن نجد بين ذلك اختلافاً كبيراً ، وكذلك تختلف نظرة الشعراء إلى بلدانهم و يزداد هذا الاختلاف وضوحاً عند الشعراء الذين هاجروا من بلدانهم او أخرجوا منها.

والشعر الوطني عادة يتناول قضايا البلد وابناءه ، و أن كل ما يتعلق بالوطن و ما ينتج عنه يكون سبباً لرقيه و شموخ منزلة . فالشاعر الوطنى يقوم عادة بحكاية وسرد مشاكل وطنه و ينبّه ابناء وطنه المخاطر المحدقة بهم . فى الواقع أنّ الشاعر الوطنى هو مدافع ثابت و راسخ عن ابناء وطنه من اخطار الاستعمار والمستعمرين و الطغاة فى العالم الذين هدفهم استنزاف خيرات الشعب و السيطرة على ثرواته و مقدراته . فالشاعر الوطنى كما قال عبد الله عطوات "هو شاعر ملتزم بآلام و طموحات أمته". (مقدسى، ١٩٨٤: ٢٥٤-٢٥٧)

لذلك " فإن الوطنيات تعنى عشق الوطن والعلقة العاطفية الحميمة به و ايضاً تعنى صلة الفرد بالمنطقة الجغرافيه التى تسمّى بـ (الوطن) " (الحصرى، ١٩٨٤: ٩) .

فتعريف الشعر الوطني كما اشار اليه اديب الحصري " بانه يطلق على كل ما يتوجه اليه الشاعر من الوطن وابناءه ويشتمل على كل امور تتعلق بالوطن يحمي حقوق ابناءه والصيانه عن وحدة وتنوير الى الاخطار التي تهدد المجتمع " . (المصدرنفسه).

و يمكننا تقسيم العوامل التى تسبّب فى انشاد اشعار الوطنية إلى قسمين اساسين :

أ- عوامل خارجية بـ - عوامل داخلية ؛

امّا فى يومنا هذا ، " فالقضية الفلسطنية هى التى تجسد هذه الافكار من خلال شعر المقاومة الذى يعتبر نموذجاً ومصداقاً كاملاً للاشعار الوطنية العربية ، والاسلامية حيث تحتل مساحة كبيرة من الادب العربى المعاصر". (اميل ناصيف: ١٦)

إبراهيم طوقان : وقفةٌ قصيره

فى ارض فلسطين العربية الطاهرة ، و فى جوعابس خانق ، ولد الشاعر المناضل إبراهيم عبد الفتاح طوقان فى قضاء نابلس عام ١٩٠٥ م ، و هو ابن لعائلة طوقان الشعرية ، و رضع من ثدى الوطنية حتى مات فى ربيع العمر زهرة يانعة ذبلت بعد تفتح ، وظمئت بعد ارتواء . ان شاعرنا اختلط فى نفسه آهات نمت وترعرعت فيها ملجأ رحبا لتقبلها و الصبر عليها . فهو يقاوم دائين، داء فى معدته سبب له نغصة فى حياته لم يشعر بها بالتلذذ مذ دخل الجامعة الامريكية فى بيروت حتى عين معلماً فى نابلس و بعدها مديراً للمعارف فى بغداد، و من ثم عين موظفاً فى اذاعة القدس ، و كل ذلك و الالم المعض و داء المعدة الوبيل يلاحقه اينما حل ، و أنى ارتحل و حينما يروح و يغدو. فكان أن نال شفقة (ملائكة الرحمة) حيث أصبح نزيل المستشفيات تزوج طوقان من سيدة من آل عبد الهادى و له من الابناء جعفر و عرب.

إلا ان بسبب ضعفه الجسمانى نمت معه العلل حتى قضت عليه . اشتدت عليه وطأة المرض إلى أن توفى مساء يوم الجمعة ٢ ما يو ١٩٤١ م و هو فى سن الشباب لم يتجاوز السادسة و الثلاثين من عمره. تلك النفس الشابة ابتليت و صاحبها بالامرين داء فى جسمه ، و اسقام فى نفسه و روحه التى تأبى ان تدنس قدم دخيله خسيسه ارضة الطاهرة المطهرة التى كانت معراجا لرسولنا الكريم و مهبط للأنبياء ، و مكانا لرسالات السماء ، و موطنا لاشرف الخلق ومعينا لاطهر النبع ، ومنبتا لاطيب الثمر و الزرع .

و كانت شقيقته فدوى من اكثر الناس تأثرا بوفاته فكتبت سيرة حياته ، ذكرت فى ختامها أنه "كان لابراهيم مصحف صغير لايفارقه ، و لما توفى كان ذلک المصحف تحت و سادته ، و ما تزال ، إلى اليوم،تنيه ثناها فى احدى صفحات سورة التوبة ، و كانت هذه الايات الشريفة آخر ما تلاه من كتاب الله اثناء مرضه " (فدوى طوقان، ١٩٤٦: ١٥-١٧) . "والذين آمنوا و هاجروا و جاهدوا فى سبيل الله باموالهم و انفسهم اعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان و جنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها ابداً إن الله عنده اجر عظيم" (سورة التوبة: ٢٠-٢٢)

شعره:

ابراهيم طوقان شاعر وطنى قومى ، عاش حياته القصيرة شعلة من الثورة و التحدى فى مواجهة الاستعمار البريطانى و الغزو الصهيونى ، و انشد لكل المجاهدين و الشهداء فى سائر اقطار العروبة ، لُقب بـ (شاعر فلسطين) و كان اول شاعر فلسطينى وجّه اهتمامه إلى النقد الذاتى فجعله موضوعا محورياً فى شعره ، و هو رائد الشعر النضالى بفلسطين ، و كان له تأثير كبير فى الاجيال اللاحقه من شعراء فلسطين .

يتسم شعر ابراهيم بالجزالة و القوة في غير تعقيد ، و يتراوح بين المحافظة و التجديد فى الصور و المعانى ، و الاوزان الشعرية ، و لعله الأول بين شعر الاذاعات العربية إلى اليوم ، و بخاصة نشيد «موطنى» . و هو الى ذلك شاعر غزل رقيق حلو الصورة ، عذب النغم ، لطيف الدعابة يقول فيه

الدكتور عمر فروخ : "لقد بلغ شعر ابراهيم ثلاث ذرى متعاقبة : ذروة الحب ، ذروة الشهوة ، و ذروة المشكلة الوطنية" (شاعران معاصران، ١٩٥٤: ٨٥). و يقول الدكتور احسان عباس : " ....ربما نسي الشعراء المحدثون أن ابراهيم رائد من روادهم ، لقد جرأهم بالتنويع فى داخل القصيدة الكبيرة على تنويعات من نوع جديد ، و من خلال البساطة المنّفرة بوضوحها و التى شاءها مجالا للشعر ففتح لهم الباب الى خلف دهاليز الغموض ، و عن طريق الالتزام بقضية وطنه أعطاهم درسا عميقاً فى ان الارتباط بقضية الشعب لابد ان تتم على مستوى التعبير الدارج المؤثر الموحى الذى يعنى ان الشعر مظهر ضرورى لتصفية المبتذل و المألوف ". (احسان عباس،١٩٩٣: ٢٤)

و مما وصف به شعر طوقان كلمات للاديب الدكتور ناصرالدين الاسد ، رئيس الجامعة الاردنية سابقا ، قال فيها: "و أهم سمات هذا الشعر أنه فى مجموعه يسير على عمود الشعر العربى بسلامة أسلوبه واختيار ألفاظه و إشراق ديباجة ، واضح لاغموض ولاابهام ولارمزية فيه ، يعرض المعنى من غير تكلف و دون أن يجهد نفسه او يجهد القارى بالغوص العميق على المعنى او بالخيال المنجنح و المجاز المعقد ، ألفاظه قريبة سهلة عذبة لا إغراب فيها مع جزالة و بعد عن الابتذال". (ناصرالدين الاسد، ١٩٦٦م : ١٣)

و كان ابراهيم طوقان الابرز بين شعراء جيله فى فلسطين و قد كرس معظم طاقته الشعرية لقضية وطنه حتى ان تلاميذه كانوا يحفظون القصائد و الاناشيد التى ينظمها فيلهب بها حماسهم و يبعث الامل فى نفوسهم . إن كل قصيدة يحيى فيها شاعرنا شهداء الحق و الكرامة تقابل مدفعا يبيد موقع الظلم ، و يدمر معاقل الخيانة ، ويكفيك ان تسمع قصيدته (الشهيد) التى يقطر كل حرف من حروفها بدم النقس العربية الوثابة لاسترجاع حق مغتصب و كرامة مهدورة . انها تصوير رائع لهذا البطل الفذ و الطود الشامخ و العملاق العظيم .

ان نفس الشهيد تجمع الهائج الخضم الى الراسخ الاثم ولاعجب اذ أنها تلتقى فى مزاجها بالاعاصيرو الحمم

و صاحبها هو الاخر الذي :

لم يبال الاذى ولم يثنه طارى الالم

و الدليل على ذلك انه:

سار فى منهج العلى يطرق الخلد منزلا

لايبالى مكبـــلا نالـه أو مجـدلا

فهو رهن بما عزم (الديوان ، ١٩٥٥، ٣٦)

نعم . انه لا يعرف منزلا سوى الخلود ، و لاسبيلا سوى الحق ، الذى لاينالـه الا مطالبا بـه مدافع عنـه .

و فـى قصيدته (الفدائي) نلاحظ انـه صـور لنـا هذا الشـهم الضـرغام ادق تصـوير بـأحلى ريشـه فنـان حيث يطلب منك أن:

لاتسل عن سلامته روحه فوق راحته

حقا، انه حمل روحه فوق يده وكفنه على رأسه

بدلته همومـه كفناً من وسادته

فهو ينتظر منيته ساعة بعد اخرى:

يرقب الساعة التى بعدها طول ساعت (الديوان:٦٥)

و يصف الفدائى وصفا يعجز حتى النثر عن التعبير بمثله فهو يصوره بأنه واقف فى باب السجن ينتظر قدوم الطاغية ليلقنه درسا لا ينساه – و الردى خائف منـه – و يرى ان قوة العواصف لاتعدل جرأته و بطولته

هو بالباب واقـف و الردى منه خائف

فاهدأى يا عواصف خجلا من جراءته (المصدرنفسه)

و لا ملامة عليه فالذى يعرف مقصده وغاياته وأسبابها لايتوجه اليه بادنى لوم فقد رأى منهج الحق مظلما وبلاده العزيزة الغالية قد تهدم ركنها و خصوم المارقين قد ضجت بظلمهم الاراضى و السماء :

لا تلوموه قد رأى منهج الحـق مظلمـا

و بلادا احبـها ركنـها قـد تهدمـا

وخصوما ببغيهم ضجت الارض والسما (المصدرنفسه)

إنَّ هذا ما دفعه للحد من استهتار الخصوم الالداء الذين عاثوا فسادا بالارض المقدسة و شرائع السماء و فى قصيدته (الثلاثاء الحمراء) نلاحظ شاعرنا تخنقه غصه دامية لشباب فدوا اوطانهم بارواحهم فلم يبخلوا . انها لأحلى هدية تزجى منهم لوطن اغترفوا من نبعه و تفيأوا بظلاله فكان أن عانقوه بقلوبهم و نفوسهم التى صعدت إلى العلى الاعلى بشهادة ابديه فهم احياء عند ربهم يرزقون . و لئن قطعت رؤسهم على اعواد المشانق فانها ستبقى لواء يستنهض الهمم و يستحث العزائم . و لقد حيا شاعرنا تلك الجثث الزكية الطاهرة فالاباء يعطرها والوطن ليس يشفي داءه إلا الاباء :

(اليوم) تنكره الليالى الغابره تظل ترمقه بعين حائره

عجبا لاحكام القضاء الجائره فأخفها امثال ظلم سائره

وطن يسير الى الفناء بلارجاء

والداء ليس لـه دواء إلا الإباء

ان الاباء مناعة ، ان تشتعل نفس عليه تمت ولما تقهر (الديوان ، ٣٨)

و يصف لنا فى (الساعات الثلاث) و هى من نفس القصيدة – الاحرار الثلاثة – الذين علقوا على مفاصل البغي والعمالة وكيف فصلت الجثث عن روؤسها ساعة بعد أخرى . ففى (الساعة الأولى) يسقط فؤاد حجازى و فيه يقول:

أنا ساعة النفس الأبيـه الفضل لى بالاسبقيـه

بنت القضيــة إن لــى اثرا جميلا فى القضية

أودعت فى مهج الشبيبة نفحة الروح الوفيــه (المصدر نفسه)

و بروحه يقسم الشاعر ولها يدعو وبها يفخر و يمجد فهو لم ينل الخلود بغير التضحية والوفاء:

قسماً بروح(فؤاد) تصعد من جوانحه زكيـه

ما نال مرتبة الخلود بغير تضحيه رضيــه

عاشت نفوس فى سبيل بلادها ذهبت ضحية (المصدر نفسه :٣٨)

و يصف (الساعة الثانية) على لسان محمد جمجوم وهو الشهيد الثانى الذى قطعت رأسه مشانق الاعداء :

أنا ساعة الرجل العتيد أنا ساعة البأس الشديد

أنا ساعة الموت المشرف كل ذى فعل مجيد

بطلي يحطم قيــده رمزا لتحطيم القيود (المصدر نفسه)

و يقسم شاعرنا بروحه الوثابة نحو العلى ، فلقد منعه أباؤها ان تقبل شفاهه أقدام الغرباء :

قسماً بروح (محمد) تلقى الردى حلو الورود

ما نال من خدم البلاد أجل من أجر الشهيد (المصدر نفسه)

وتحين (الساعة الثالثة) التى يعدم فيها الشهيد عطا الزير فيقول شاعرنا على لسانه :

أنا ساعة الرجل الصبور أنا ساعة القلب الكبيـر

بطلي اشد على لقــاء الموت من صمم الصخور (المصدر نفسه)

و يقسم شاعرنا بروحه وصغاره التى تبكى ضرغامها المنقذ للوطن من شعر الأعداء :

قسماً بروحك يا(عطاء) و جنه الملك القديـر

و صغارك الاشبال تبكى الليث بالدمع العزيز

ما انقذ الوطن المفدى غير صبار جسـور (المصدر نفسه)

و هكذا يجعل شاعرنا من قصيدة رفيق طيور على ارواح الشهداء ، سياط نار على رؤوس الغاصبين ، يصفهم و ما جفت فى عيونه الدموع ولا فارقت انفاسه الشهقات ، و ما وجمت شفتاه عن ترد يد الابتهال الى العلى القدير باسكانهم جناتِ عدن تجرى من تحتها الانهار.

و فى قصيدته (تفاؤل و امل) يرثى الوطنية يتمها مما دخل عليها من وهن و اضمحلال . فلقد راجت سوق الدجالين الذين يرفعون اعلام الوطنية ظاهراً و يسحقونها بالاقدام باطنا .

انه الزيف بذاته ، انه اساءة للوطنية لم يكن من السهل غفرانها ، و هى بالتالى تحقير لرجالها ، لعبادها الذين كان شاعرنا منهم فانبرى يكشف الزيف المبرقع يلامع الطلاء ، و يهتك الحجب عن حقارة هذه النفوس التى دنسها الغدر و الرياء :

وطن يباع و يشترى وتصيح،«فليحيى الوطن»؟!

لو كنت تبغي خيره لبذلت من دمك الثمن

ولقمت تضمد جرحه لو كنت من اهل الفطن (ديوان : ٦٤)

و يرى فى الشباب الحر الواعى خير داريء للاوطان من رجعي انتهازي اينما مالت الريح يمل معها ، يبيع البلاد بالدراهم و بئس الفعلة النكراء :

فللأوطان فى دم كل حر يد سلفت و دين مستحق (المصدر نفسه)

أجل : بالاحرار تتحرر البلاد من عباد المطامع ، و بالشباب يرجع الوطن زهياً فتيا :

حى الشباب و قل سلاما انكم أمل الغد

صحت عزائمكم على دفع الاثيم المعتدي

وطنى ازف لك الشياب كأنه الزهر الندي

لابد من ثمر له يوما و ان لم يعقد (المصدر نفسه :٦٤)

أجمل بها باقات من زهر ندية عطرة تؤتى أكلها قبل الاوان ! ما أحلاها تكلل الوطن بنضارتها ، و تنعش النفوس ببسمتها للغد المشرق والامل الزاهر .

و يتوجه شاعرنا (إلى بائعى البلاد) طمعاً بالمال فهم لايفهمون كلمة (وطن) لان دون الفهم اطماعا تجعلهم متغافلين عن عز اضاعوه و كنز باعوه بثمن بخس . و تلك حماقة لايرتكبها كل من وخزه ضمير وردعه حياء :

باعوا البلاد إلى اعدائهم طمعا بالمال لكنما اوطانهم باعو

قد يعذرون لو أن الجوع ارغمهم و الله ما عطشوا يوما و لاجاعو

تلك البلاد اذا قلت : اسمها (وطن) لا يفهمون، و دون الفهم اطماع

يا بائع الارض لم تحفل بعافية و لا تعلمت ان الخصم خداع

فكر بموتك فى ارض نشأت بها واترك لقبرك ارضا طولها باع (الديوان : ٥١)

و يدعو قومه أن (اشتروا الارض تشتريكم من الضيم) (الديوان: ٥٧). فان الارض قد عاشت بها اقدام المارقين و الحرص عليها لا يقوم الا على اكتافِ غيور مجاهد حام لها ، ذائد عنها ، مغرم بها قولا و فعلا :

بارك الله فى حريص على الارض غيور ينهى اليها اهتمامه

هم حماة البلاد من كل سوء وهم معقل الحمى و دعامه

نهجوا منهج القوي و صفوا لجهاد منصورة اعلامه (الديوان : ٥٣)

و يتوجه إلى هؤلاء الهائمين ببلادهم قولا و لكنهم يسرعون فى الهزيمة فعلا تاركينها ترزح تحت الضيم و البؤس و الشقاء فيقول :

آزروا القائمين بالعمل الصالح ان الأبي هذا مقامه

اشتروا الارض تشتريكم من الضيم و آت مسودة أيامه (المصدرنفسه :٥٣)

و فى قصيدته (يا رجال البلاد) نلاحظ بأنه قد صب جام غضبه عليهم لانهم سكتوا عن عصبة(دلالين) ابتلى وطنه بهم تسربلوا ثياب العز ولكن حشوها ذل و رياء ، ولقد حسبوا رجالا وان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا:

وطنى مبتلى بعصبة (دلالين) لايتقـون فيــه اللــه

فى ثياب تريك عزاً ولكـن حشوها الذل و الريا سداها

حسبوا فى الرجال، هل كانت الانـعام الا لمثلهم اشباها؟! (الديوان : ٥٥)

و لذا فهو يتوجه لرجال البلاد و قادة الامة ليلقى باللائمه عليهم حيث الالسن صكت الاسماع فلا تسمع الا ضجيجا لانصيب له من العمل و العقل ، و ما أهون على الانسان أن تجف شفتاه من طول الكلام !

و يبح صوته من كثره النداء! وما اثقل عليه ان يقرن كلامه بعمل يكون دليلا على صدقه و احساسه !:

يا رجال البلاد يا قادة الامة ماذا دهاهــم و دهاهـا ؟

صكت الالسن المسامع حتى لقيت من ضجيجكم ما كفاها

كان اولى بكم لو ان مــع الحقول مغالا محمودة عقباها (المصدر نفسه)

و فى قصيدته (فلسطين مهد الشقاء) . يصور الحقيقة جلية واضحة فيكشف للملائكة من السماسرة و باعة الاوطان حتى صار الثراء الزائف يعمى قلوبهم عن خطر سيحل بفلسطين من وراء تلك المساومات:

أحبابنـا لاتخدعــوا عنا بظاهرة الرخاء

ليست فلسطين الرخية غير مـهد الشقـاء

هيهات ذلك ان فــى يبع الثرى فقد الثراء (الديوان :٥٧)

و علام يقع اللوم؟ إليس الا على ابناء الوطن لما حل من هذا البلاء :

من ذا ألوم سوى بنى وطنى على هذا البلاء (المصدر نفسه)

لان ابن الوطن قد أخذته الحماسة و بهرته الكياسة حتى قدس من يستحق التقديس من الخائنين و الغرباء والمستعمرين الذين يأكلون من بلح بلاده و يرمون النوى فى وجهه و مع كل هذا فقد اعطى بيديه اعطاء الذليل :

فالى متى يا ابن البلاد وانت تؤخذ بالحماسة

والى متى(زعماء) قومك يغلبونك بالكياسة

ولكم امطنا خائنا منهم بهالات القداسة (المصدر نفسه)

و فى قصيدته(حطين) : نلاحظ شاعرنا يمزقه الاسى و تقطب وجهه الكآبة و تخنقه العبرات حين يستقبل بها احمد شوقى . فلئن طمع أشعب فى مصر فقد طمع فى فلسطين أشعبان الاستعمار و الصهيونية ، والامر من هذا ان اهلها اخذتهم رعشة التخاذل فأصابهم من جراء هذا تشاؤم و توان هم فى غنى عنه لولا الاطماع ببريق اوراق الذهب حيث تجعلهم فى معزل عن الاوطان.

ذهب الذين عهدتهم لايصبرون على الهوان

فى مصر يطمع أشعب وهنا تمادى اشعبان

وهنا التخاذل فى الشدائد والتشاؤم و التوانى

و النفس يقتل عزمها طول التعلل بالامانى (الديوان : ٦٧)

هذا هو ابراهيم طوقان يحس احساسا عميقاً بما يتعرض له الوطن، و يراقب فى نفس الوقت زعماء هذا الوطن، فيدرك أنهم مختلفون فيما بينهم، و أن خلافاتهم ليست من أجل المصلحة العامة و انما حول مصالحهم الشخصية، و ماذا يملك العاشق الذى كبر سوى السخرية من هولاء الزعماء؟

انتم المخلصون للوطنية

انتم الحاملون عبء القضية

انتم العاملون من غير قول

بارك الله فى الزنود القوية

و بيان منكم يعادل جيشاً

بمعـدات زحفه الحربيـة

و اجتماع منـكم يردعلينـا

غابر المجد من فتـوح اميـه

وخلاص البلاد صارعلى الباب

و جاءت أعيـاده الورديه (بكار،٢..٣: ١.٣)

هذا الاحساس الفاجح بأن مأساة مروعة توشک ان تحمل بالوطن بينما الزعماء لاهون، و ليس لكل منهم هم او غاية إلا ان يحقق مغانم شخصية.كذلک نجده مهتماً برصد ما يقوم به الخونة من سماسرة الارض الـذين كـانوا يبيعـون أرض فلسـطين للصـهيانية، كمـا نجـده مهتمابمراقبـةالهجرة اليهوديـة إلـى فلسطين، و ها هو يصور هؤلاء المهاجرون اليهود سنه ١٩٣.، و كيف يهاجر منهم الف شخص، و يأتى الف آخر مهرباً و يدخل الف ثالث بحجة السياحة فى فلسطين.

هو الألف لم تعرف فلسطين ضربة

أشد و انكى منه يومـاً لضـارب

يهـاجر الف ثم الـف مهربـا

و يدخـل الف سائحاً غير آيـب

و ألـف جواز ثم الف وسيـلة

لتسهيـل ما يلقونه من مصاعـب

و هنا يصرح الشاعر الذى كبر العشق فى قلبه، فامتد إلى كل ذرة تراب فى فلسطين، مطالباً ابناء الوطن بأن يستيقظوا ، ومنادياً بأعلى صوته كلاً من الحاج آمن الحسينى و راغب باشا النشاشيبي و هما زعيما الحزبين المتصارعين فى فلسطين في ذلک الزمان.

يقول ابراهيم طوقان

أن قبلى لبلادى لا لحزب او زعيم

لم ابعه لشقيق او صديق لى حميم

ليس مني لو أراه مرة غير سليم

و لسانى كفؤادى نيط منه بالصميم

وغدى يشبه يومى و حديثى كقديمى

لم اهب غيظ كريم لا ولاكيد لئـيم

غايتى خدمة قومى بشقائى او نعيمى

و هى صرخه اطلقها ابراهيم طوقان فى وجه الزعامات و التخربات التى أضاع تشتتهم أنذاك القضية الفلسطينة و هى قصيدة واضحة المعانى.

و فى نشيد موطنى الذى نظمه الشاعر ابراهيم طوقان، يحق للاطفال الفلسطينين أن يفاخروا بوطنهم، و أن يعتزوا بالعيش فيه و يدعو له بالسلامة من الاعداء، و أن يرفضوا عيش العبيد تحت الاحتلال ثم يدعوهم لطرد المحتلين اليهود عن وطنهم ليبقى لهم وحدهم.

و هذا النشيد لأهميتة جعلته السلطة الوطنية الفلسطينة عندما اقيمت على اثر اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، النشيد الوطنى الفلسطينى الذى ينشده أطفال مدارس فلسطين صباح كل يوم دراسى، و ينشده الكبار فى كل مناسبة وطنية. و اصبح اليوم النشيد الوطنى لجمهورية العراق.

موطني الجلال والجمال

موطنى الجلال و الجمال السناءُ و البهاء فى رُباك

و الحياءُ و النجاة و الهناءُ و الرجاءُ فى هواك

هل أُراك.....

سالماً منعماً و غانماً مكرما

هل اراك فى عُلاك

تبلغ السماك

موطنى....

موطنى الشباب لن يكلّ همُّهُ أن تستقلُّ او يبيدِ

نستقى من الردى وَ لن نكون لِعدِى كالعبيد

لا نُريد

دلنا المؤبدا و عشينا المنكدا

لانُريد بل نعيد

مجدنا التليد

موطنى ....

موطنى الحسامُ و اليراعُ لا الكلام و النزاع رمزنا

مجدنا و عهدنا و واجب إلى الوفاء يهزنا

عِزُّنا

غايةٌ تشرّفُ و رايةٌ تُرفرف

يا هناك فى عُلاك

قاهراً علاك

موطنى ...

(عباس ،١٩٩٣: ٢٦٤)

الخاتمة:

و هكذا يستمر شاعرنا بجذوة شعره و لهيب قصيده ، يدفعه من وراء كل ذلك وطن سليب و أرض مغتصبة، و حقد دفين على هؤلاء الذين يبيعون ضمائرهم بالدرهم و بلادهم بالدينار. حتى ضاعت

هذه الدره اللامعة و العقد الفريد من جيد الوطن العربى، و لئن عفا الزمن على آثار هؤلاء الانتهازيين الذين لاضمير يؤخرهم و لاعزة ترفعهم و لاكرامة تدفعهم لجهاد الاعداء، فان ابراهيم طوقان سيظل بشعره شمساً لايحجب ضوءَها الغربال . لقد عاش أبياً ومات أبياً. تزَيَّا بحلل الوطنية و تحلى بروح البطولة. بقي قنديلاً يضيء فى افق فلسطينه المتطلعة الى الشمس فى كل العصور، و مازالت هذه القناديل تتلألأ فى افقها حتى تحيلها إلى عالم فى الضياء.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم

١- ابن منظور، (١٩٩.) ،"لسان العرب"مادة وطن ، ط١ ، دار صادر، بيروت .

٢- الاسد، ناصرالدين ، محاضرات فى الشعر الحديث فى فلسطين والاردن- معهد الدراسات العربية الحديثة- القاهرة - ١٩٦٦م.

٣- آمنة حجازي ، (٢...) :"الوطنية المصرية في العصر الحديث "، القاهرة ، الهيئة العامه للكتاب .

٤- أنيس ، ابراهيم وآخرون(١٤.٨) : "المعجم الوسيط " ط١، مكتب نشر الثقافة الاسلامية ، القاهرة.

٥- بكار، يوسف ، (٢..٤): "ابراهيم طوقان – اضواء جديد" ، ط٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان

٦- بن الأحنف ، العباس (١٩٦٥):"الديوان"،دار صادر،بيروت.

٧- بن فارس ،الحسين احمد ، (١٩٩١) :"مقاييس اللغة" ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت .

٨- الجرجانى ، علي بن محمد الشريف ، (١٩٨٥) :" التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت .

٩- الحصري ، (١٩٨٤) : "آراء و احاديث فى الوطنية و القومية "، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان .

١.-الزبيدى، محمد مرتضى الحسيني ، (١٩٦٦) : "تاج العروس" ، دار صادر ، بيروت . ١١- طوقان، ابراهيم ، (١٩٥٥) :" الديوان"، ط١، طبعة دار الشرق الجديد .

١٢طوقان، فدوى ،(١٩٤٦) : "لاخى ابراهيم" ، المكتبة العلمية ، بيروت .

١٣ عباس ، احسان ، (١٩٩٣) :" الاعمال الشعرية الكاملة (ابراهيم طوقان) " ، ط٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان .

١٤عباس، احسان ، (١٩٩٣) :"فصول حول الحياة الثقافية و العمرانية فى فلسطين" ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر- بيروت.
١٥فروخ ، عمر، (١٩٥٤) :" شاعران معاصران(ابراهيم طوقان و ابوالقاسم الشابى)" ، المكتبة العلمية ومطبعتها ، بيروت .
١٦-المقدسى، انيس، (١٩٨٤م) : "الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث "، منشورات مكتبة النهضة ، بيروت .١٧ - ناصيف، اميل ،(١٩٩٢) :"اروع ما قيل فى الوطنيات" ، منشورات دار الجبل .

Sources and references
The Holy Quran
1- Ibn Manzoor, (199.), “Lisan al-Arab,” Watan article, 1st edition, Dar .Sader, Beirut
2-Al-Assad, Nasser Al-Din, Lectures on Modern Poetry in Palestine and .Jordan - Institute of Modern Arab Studies - Cairo - 1966 AD
3- Amna Hegazy, (2...): “Egyptian Nationalism in the Modern Era,” Cairo, .the General Book Authority
4-Anis, Ibrahim and others (14.8): “The Intermediate Lexicon,” 1st edition, .Islamic Culture Publishing Office, Cairo
5- Bakkar, Youssef, (2..4): "Ibrahim Touqan - New Lights", 2nd Edition, The .Arab Institute for Studies and Publishing, Beirut, Lebanon
.6- Bin Al-Ahnaf, Al-Abbas (1965): “Al-Diwan”, Dar Sader, Beirut
7- Bin Fares, Al-Hussein Ahmed, (1991): “Measurements of Language”, .edited by Abdel-Salam Haroun, Dar Al-Jeel, Beirut
8-Al-Jurjani, Ali bin Muhammad Al-Sharif, (1985): Definitions, Lebanon .Library, Beirut
9-Al-Husari, (1984): “Opinions and Hadiths on Patriotism and Nationalism”, .Publications of the Center for Arab Unity Studies, Beirut, Lebanon
1.- Al-Zubaidi, Muhammad Mortada Al-Husseini, (1966): “The Crown of the Bride”, Dar Sader, Beirut.
11- Touqan, Ibrahim, (1955): “The Diwan”, 1st edition, Dar Al-Sharq Al- .Jadid edition

12- Toukan, Fadawi, (1946): “For my brother Ibrahim,” the Scientific .Library, Beirut
13-Abbas, Ihsan, (1993): “The Complete Poetical Works (Ibrahim Touqan)”, 2nd edition, The Arab Institute for Studies and Publishing, Beirut, .Lebanon
14-
Abbas, Ihsan, (1993): “Fasoul on Cultural and Urban Life in Palestine”, Arab .Institute for Studies and Publishing - Beirut
15- Farroukh, Omar, (1954): “Two Contemporary Poets (Ibrahim Touqan and .Abu Al-Qasim Al-Shabi)”, the scientific library and its printing press, Beirut
16-Al-Maqdisi, Anis, (1984 AD): “Literary Trends in the Modern Arab .World”, Publications of Al-Nahda Library, Beirut